حول الاتباعية والابتداعية

Classicism a d Romanticism

نموذج لدراسة الأقصوصة والقصة والرواية

للأستاذ نخرى قسطندى

هذا مبحث جديد قديم ، بكر مطروق ، كثر فيه القول ، وطال حوله الجدل ، وبرغم ذلك لم تنل منه الأيام ، فلم تعصف بطلاوته ولم تذهب بطرافته . كان بالأمس ولا يزال إلى اليوم مثارا لخصومة عنيفة ، ومدارا لأخذ ورد شديدين بين دعاة الكلاسيكية وأنصار الرومانتيكية ، دون الوصول إلى رأى جازم أو قرار حاسم أو نتيجة قاطعة . ومن طريف ما يروى أن نقطة الرومانتيكية كانت مبعث خيبة مريرة ، وذهول عميق لقارئين من قراء إحدى المجلات الأدبية التى تصدر فى باريس .

ذلك أن الفريد دى موسيه طلع عليهما فى ١٨٣٦ بكتابه : Lettres de Dupuis et Cotonet الذى فصل فيه القول عن الرومانتيكية تفصيلا ، وأفاض فيه إفاضة ؛ وألم إلى معان لم تدر لهما بخلد أو تختلج لهما فى عقل . فما كانت الرومانتيكية عندها حتى ذلك العهد سوى نزعة أدبية تطبق على المسرحية ولا تطبق على غيرها من سائر ألوان الأدب . فشكسبير على سبيل المثال رومانتيكى ، لأنه خرج فى مسرحياته على الوحدات الثلاث التى استنها رجال الأدب الأقدمون من نقاد الاغريق واللاتين ، وهى وحدات العمل والمكان والزمان فلم يتقيد بها أو يأبه لها . فشخوصه تطوف أبدا فى الأقطار ، ما يقر لها قرار ، تجول بروما ثم تلم بلندرة ثم تكر راجعة من حيث أتت ، وذلك كله فى ظرف وجيز ، ووقت قليل لا يتعدى ربع الساعة أو يتخطاها بحال من الأحوال .

وما كان لها أن يتلقيا الصدمة الشديدة الوطأة بثبات روع أو هدوء بال ، وقد تبينا لأول مرة أن هناك حكايات Novels وقصائد odes ومقطوعات شعرية poems رومانتيكية ، كما أن هناك حكايات وقصائد ومقطوعات شعرية كلاسيكية .

وكان مما قالاه فى هذا الصدد « لم يكن فى مقدورنا حين تلقينا هذا النبأ أن نغمض العين طوال الليل quand nous reçumes “ cette nouvelle, nous ne pumes fermer l'oeil de le nuit ”

هذا طرف مما وقع لبعض القراء من الخلط والاضطراب فى أمر هاتين اللفظتين ، وهو ليس بنادر الوقوع أو بعيد التصديق . فهاتان اللفظتان تضيقان بلا مراء بالمعانى المحدودة والمفهومات المعروفة . وفى إمكاننا أن نسوق الدليل بعد الدليل نؤيد به ما ذهبنا إليه ؛ فالأدلة كثيرة والشواهد متنوعة . ومن قبيل ذلك ما يؤثر عن العلامة ج . ج . روبرتسن J. G. Robertson أحد نقاد الأدب الانجليزى المعاصرين . ففى ١٩٢٣ أصدر سفرا قيما يتسم بسمة العلم وغزارة المادة أطلق عليه دراسات فى أصول النظرية الرومانتيكية فى القرن الثامن عشر فى إنجلترا Studies in the genesis of Romantic Theory in the le th Cnte انتهى فيه إلى القول بأن الرومانتيكية فى إنجلترا فى القرن الثامن عشر لم تكن من نتاج الأدباء الانجليز أو ابتكارهم بل هى مستمدة منقولة بجميع خصائصها وكافة سماتها عن لفيف صغير من النقاد الإيطاليين مغمورى الاسم . وفى السنة ذاتها ظهر كتاب فى بولونيا ، للناقد الكبير جيسب كوفانن : giuseppe coffanin نادى فيه بأن نفس هذا اللفيف من النقاد الإيطاليين قد توارث الروح الكلاسيكية السائدة فى عصر النهضة فى إيطاليا .

ولم يكن النزاع بين الكلاسيكية والرومانتيكية فى مبدأ الأمر سوى نزاع بين من ينتصرون للقديم ، وبين من يتعصبون للجديد فى الأدب ، ثم ما لبث أن استفحل الشقاق واتسع الخلاف واتسم بطابع الغلو والاسراف . فلم يرض أنصار الكلاسيكية بالقديم على قدمه ، لأن بالقديم شيئا من شذوذ ، وليس من سبيل إلى كلاسيكية قويمة ، يحل فيها الشذوذ والاضطراب ، محل الانسجام والائتلاف .

ولفظة رومانتيكى ابتداع لغوى حديث ، ولكن ما توحى به فى الذهن من معان معروف مشهور ، حتى قبل أن تخرج هذه اللفظة إلى حيز الوجود بعهد طويل . والنعت « رومانتيكى » أبعد فى القدم من الاسم « رومانتيكية » . وقد استعمل أول

ما استعمل فى انجلترا بعد الفتح النورماندى فى العصور الوسطى التى اشتهرت بانتشار القصص الشعبية الفرنسية French romances وحظ الخيال المفرط والتأليف الخصيب فى هـذه القصص أرفع شأنا من حظ الوقائع المعقولة والحقائق المجردة . ذلك لأن هذه القصص تروى ضروبا من البطولة خارقة ، وتحكى صنوفا من المغامرات فذة ، وتتغنى بأشكال من البسالة والاقدام نادرة المثال؛ ومن ثم اشتقت لفظة رومانتيكى دلالتها من كل ما هو خارق فذ بعيد عن حياة الواقع . واستعملها الكتاب فى هذا المعنى أو فيما يمت لهذا المعنى بصلة قريبة وثيقة . ولنضرب مثلا بما جاء فى سنة ١٦٥٤ فى مفكرة ايفلين Evelyn أحد رجال البلاط الانجليزى المغرمين بمراقبة التطورات التاريخية وتسجيل الأحداث الشاذة المعاصرة لعهده « يوجد بالجانب الآخر من جبل الألب المهول هذا قصر رومانتيكى للغاية » . كذلك كتب صامويل بيبس Samuel Pepys أحد الثقات فى تاريخ إنجلترا فى القرن السابع عشر وصفا موجزا فى ١١ من مارس سنة ١٦٦٧ للدسائس السياسية التى كان يحيك أطرافها ملك فرنسا وقال فى الختام « هذه الأمور رومانتيكية قلبا وقالبا على وجه التقريب ، غير أنها حقيقية فقد أفضى إلى سير هـ . تشوملى Sir H. Cholmly بأن الملك نفسه رواها له بالأمس » .

وإن دل هذا على شيء فلا يدل إلا على ثبات لفظة رومانتيكى على المعنى الذى أسلفنا فيه القـول ، واتصافها بكل ما هو ناء قصى عن العرف والتقاليد أو ثائر عصى على المألوف والمعقول . وقد استعمل توماس سبرات Thomas Sprat هـذه اللفظة فى كتابه : « تاريخ جمعية الأبحـاث العـلمية الملكية » ، The History of the Royal Society للمقابلة بين منهج البحث العلمى البحت ، وبين منحى التخيلات وما يشوبها من إغراق لا غناء فيه ، قال : وسوف يكون هذا المنهج رد لأذهاننا من التضخم الرومانتيكى Romontic Swelliuq ، لأنه يكشف لها عن الأشياء فى صورها المألوفة . وفى مثل جرجها تماما « وفى موضع آخر يقرر سبرات أن ما أصاب العلم من الغمز واللمز كان على يدى خصومه من المتحذلقين المتفلسفين الذين يرون أن العلم يصبغ الناس بصبغة رومانتيكية ، ويدفعهم إلى تصور الأشياء على صورة أكثر كما لا مما تحتمله الأشياء ذاتها . »

ثم أقبل القرن الثامن عشر وبسطت عليه فلسفتها هوبز Hobbes ولوك hocke ظلا لها الوارفة ، ووجد العلم التجريبى مرتعاً خصيباً وأحرز نصراً مبينا ، فازداد الرأى القائل ، بأنه فى الامكان تفسير العالم على ضـوء العقل دون اللجوء إلى ما هو خارق أو الولوج إلى ما هو غامض ، قوة ويقينا . ومصداق هذا الرأى ما جاء على لسان هرد Hurd « إن نور العقل قد أشرق منذ عهد قريب ، وهو يوشك أن يسيطر على أطياف الخيال الجسيمة . » هذه الأطياف التى كانت تنزل فى القلوب منزل اليقين بما لها من قوة اقتناع وشدة تأثير ، ثم ما لبثت أن أودت بها عجلة الزمان ويد الحدثان هى التى أجمع النقاد على نعتها بالرومانتيكية .

وقد سبق أن ألمعنا إلى ما للرومانتيكية من صلة بالعصور الوسطى ، والآن يحق لنا أن نتساءل لماذا لم يرض هينى Heine عن هذه الصلة من حيث هى صلة لا أكثر ولا أقل ، حين يزعم أن لفظتى رومانتيكى romantic وميديفال m(dieval مترادفتان متكافئتان فى المعنى والجواب على ذلك هو ما جاء على لسانه « ما هى المدرسة الرومانتيكية فى ألمانيا ؟ إنها لم تكن ثمة شيء آخر غير بعث شعر العصور الوسطى من مرقده ، ذلك الشعر الذى تجلى فى المقطوعات الشعرية والرسوم الزيتية والتماثيل ، وفى ألوان الفن وصور الحياة السائدة فى تلك الأوقات » ومثل هذا القول لا يطابق الأدب الانجليزى مطابقة تامة ، فالأدب الإنجليزى أوسع من أن تحده مثل هذه الحدود والقيود . والذى يجدر ذكره هنا فى صدد التعقيب على هينى هو أن القصة وسائر فنون الأدب فى العصور الوسطى مدينة لذلك الخيال المفرط الخصيب الذى اشتهرت به العصور الوسطى ، والذى ينبيء عن عقلية وليدة رضيعة من أظهر مظاهرها وأخص خصائصها بناء عوالم من الأحلام والأوهام . ولما كانت العصور الوسطى فى انجلترا مقرونة بتدمير الأديرة وتخريبها بعد تولى أسرة تيودر مقاليد الحكم ، فمن البديهى أن ينصرف اهتمام الأدباء فى القرن الثامن عشر الذى بعثت فيه العصور الوسطى من جديد إلى الأنقاض والإطلال .

(للبحث بقية)

فتحى قطنرى
مدرس بالمدارس الثانوية